المحاضرة الثالثة : المروث الحضاري للإحتلال الروماني

أ-التغيرات الإجتماعية :

تجدر الإشارة إلى أن مُكونات مجتمعات المدن المغربية أثناء الإحتلال الروماني ، كانت خليطا من الرومان والأوربيين(إيطاليين ، إيبريين و غاليين) عموما و أفارقة مُرومنين(يأخذون بأساليب الحضارة الرومانية) والعبيد الذين كانوا في خدمتهم ويمكن الفصل بين طبقات ثلاثة مُكوّنة للمجتمع في المدينة . وقد كان مقدار مُمتلكات الفرد من الأراضي الزراعية أو ثروة جمعها من التجارة أو عائدات وظيفة مرموقة في المجتمع ، هي التي تُميّز مكانة الفرد في المجتمع ، بغض النظر على أصله.

وقد كان هذا البناء الإجتماعي يأخذ الشكل الهرمي في كل مدينة مهما كانت صفتها القانونية ، مستوطنة ، بلدية رومانية أو لاتينية ،إذن طبقات المجتمع ثلاثة ، العليا ، العامة والعبيد .

1- الطبقة العليا : تشمل أغنياء المدينة وهم عادة أولئك الذين يتولون مناصب سامية في المدينة وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى أربع مراتب متتالية ، حسب المناصب التي يتولونها و قدرالمال الذي يمتلكونه ، أوّلهم الأشراف وهم أعيان المدينة ،يليهم طبقة المُرفّعين و هم من الفرسان و الإسم "مُرفع " يعني أن الإمبراطور تكرّم عليهم ورفعهم إلى مرتبة أعلى ،ثم فئة رجال الدين وفي المرتبة الرابعة الموظفون المدَنِيون مثل القضاة و أعضاء مجلس البلية ، هؤلاء الأشخاص مكنتهم وظائفهم من الحصول على إمتيازات اقتصادية و جمع مال وفيررفع مكانتهم في المجتمع .

2- طبقة العامة :تشمل هذه الطبقة الأغلبية من سكان المدينة وهم في مجموعهم من أصحاب الوظائف الصغيرة ، الحرفيين و المزارعين الصغار.

3- طبقة العبيد : وهي أسفل الهرم الإجتماعي وكانت الحروب الكثيرة التي خاضتها روما مصدرا لتوفير العبيد وقد تمّ تشغيلهم في مختلف الأنشطة الإقتصادية ، إلى درجة أن الإقتصاد الروماني اعتمد على هذه الطبقة بصفة كبيرة ، فمنهم فئة مُرتبطة بخدمة الأرض أي في مجال الزراعة في الحقول الكبيرة ومعظمهم عبيد جلبوا مِن ماوراء الصحراء أي أفارقة وإلى جانبهم العبيد الحرفيون(من الحرفة) ،

وعبيد يشتغلون في البيوت و الإدارات و هؤلاءجُلبوا من المشرق وبلاد اليونان ولهم مستوى من التعليم ومكانتهم أرفع من عبيد المزارع .

ب- التغيرات الإقتصاد:

بعد أن تحكمت الإمبراطورية الرومانية في بلاد المغرب سياسيا ، سعت بجهد للسيطرة على اقتصاد البلاد وتكريسه لصالح روما والشعب الروماني وقد كلن اقتصاد العالم القديم يقوم أصلا على الزراعة وبعض الصناعات التحويلية (تحويل المنتوج الزراعي مثل زيت الزيتون ، الخمور ، تجفيف السمك)، في هذا الصدد ،تدخلت السلطة الرومانية في السياسة الزراعية ، فبعد ان استولت على الأراضي الصالحة للزراعة من أصحابها الشرعيين و أقصتهم باتجاه السهوب والمناطق الجبلية ، كما حددت لكل قبيلة منطقة مُعينة للإستقرار بها ، لتتمكن من مراقبتها سياسيا (القضاء على التمرد والثورات) وفي نفس الوقت لتستغلها إقتصاديا الأمر الذي جعل هذه القبائل تهاجر جنوبا تاركة ممتلكاتها الصغيرة القاحلة مفضلة الحرية على حساب القوت احيانا .

1: أنواع الملكيات:

ظهرت عدة أنواع من ملكية الأرض أثناء الإستعمار الروماني:

- أراضي الأباطرة : ومعظمها في مقاطعة نوميديا و موريطانيا القيصرية والطنجية وكان يشرف عليها وكيل الإمبراطور وهذا الأخير يُعيّن بدوره مراقبين يؤجرونها للمزارعين المحليين .

- الإقطاعات الكبرى -Latifundia : وهي ملكيات واسعة (مزارع كبيرة) ظهر هذا النوع في مقاطعة البروقنصلية وكانت ملكا لأعضاء مجلس الشيوخ والطبقة الأرستوقراطية (أنظر المحاضرة رقم 1 من المحور الثالث-السياسة الرومانية).

- أراضي المستعمرات والبلديات الرومانية : وهي ملكيات صغيرة بأيدي المعمرين الرومان وبعض السكان المغاربة المُوالين للرومان.

- أراضي القبائل والسكان المحليين : بعد أن انتزعت منهم السلطة الرومانية أراضيهم الخصبة لم يبق معهم إلا الأراضي الغير خصبة والجبلية .

2-السياسة الزراعية :

بعد الحصول على الأرض ،عمل المستعمرالروماني على التحكم في نوع الزراعة والمحاصيل الزراعية من قمح ، كروم و زيتون وهذا ما يعرف بالسياسة الثلاثية التي فرضتها السلطة الرومانية على الزراعة

في بلاد المغرب ولم يكن يؤخذ بعين الإعتبار في هذه المسألة سوى مصلحة الإمبراطورو الشعب الروماني ، إلى درجة أنها سرت مقولة مفادها :" أن بلاد المغرب كانت خزان روما" ، بمعنى أن الزراعة المغربية كانت حكرا على توفير وضمان غذاء الفرد الروماني بالدرجة الأولى .

و تجدر الإشارة إلى ، أن السلطات الروما نية اتبعت وسائل متنوعة للسيطرة ،باستخدام القوة بواسطة الجيش و أحيانا أخرى بالإغراء ومنه إصدار قانون "ماكيانا" Lex Manciana الذي يقضي بإعفاء الفرد من الضرائب ،إن استصلح أرضا بورا وزرع فيها قمحا ، كروما أو زيتونا ، كما أن هذه الأرضتصبح ملكا له.

لقد تسببت هذه السياسة الزراعية المفروضة على بلاد المغرب أثناء الإستعمار الروماني ، في عدم توازن الإقتصاد بين الزراعة والرعي والتنويع الزراعي ، بل تمادت سياسة الرومان أكثرفي مجال الحرف، إذ فرضت على الحرفيين سياسة الدخول في تعاونيات تجمع أصحاب الحرفية الواحدة ، ثم بعد ذلك عملت على توريث المهنيين أفراد الأسرة الواحدة ، مما قيّد حريات الفرد وتحسين وضعيته في المجتمع.

3- الضرائب :

كانت السلطة الرومانية تفرض الضرائب على الملكيات في كل البلديات ببلاد المغرب بأنواعها الثلاث (الرومانية ، الاتينية والأجانب) وقد تراوحت نسبة الضرائب من عهد إمبراطور لآخر ومن مرحلة من عمر الإمبراطورية لأخرى حسب الظروف العامة للبلاد.

و نظرا لأهمية الضرائب المحصلة من بلاد المغرب في الإقتصاد الروماني بصفة خاصة ،أنشأت السلطة الرومانية جهازا إداريا مستقلا، يتكون من موظفي المالية ليسهر على تحصيلها وخاصة ضريبة التموين العينية (Annonae) وهي عبارة عن محاصيل وليست نقدية وكانت تؤخذ من كل نواحي بلاد المغرب و تجمع في مدينة قرطاجة أولا ،ثم بعد ذلك تُنقل بحرا إلى المدينة المقدسة "روما "وتجمع هذه الضريبة بداية من شهر مارس من كل سنة .إضافة إلى ضريبة التموين ، كانت هناك أنواع أخرى من الضرائب منها :

- الضرائب المباشرة وتشمل ضريبة الأرض ، الرأس وهي سنوية تفرض على الفلاحين ، أما الحرفيين والتجار ، فيدفعون مرة كل خمسة سنوات ضريبة موجهة لتغطية نفقات الهدايا التي يقدمها الإمبراطور للجنود.

- الضرائب الغير مباشرة ، تشمل الرسوم الجمركية وتحصل في الأسواق وقد تراوحت نسبتها من أربعة في المئة 100/4 من قيمة السلعة ،في بداية العهد الإمبراطوري إلى 100/12 في القرن الخامسميلادي ،

إضافة إلى هذه الضرائب العينية والنقدية ، كانت تفرض على أصحاب الحرف كل حسب تخصصه ومهنته من نجارين وبنائين ،عملية رصف الطرقات ، يقدم خدمات مجانية لصالح البلدة التي يعيش فيها .

ج- التغيرات الدينية :

ككل شعوب العالم القديم ، وضع الإنسان في بلاد المغرب لنفسه مجموعة من الأرباب مُمَثلة للظواهر الطبيعية التي لم يجد لها تفسيرا وكان منها التي أرعبته وخاف تبِعاتها السلبية ، فتقرب إليها بالقرابين طالبا عفوها وعدم إيذائها له، وفي الوقت نفسه تقرّب من القوى الإيجابية بنفس القرابين طالبا رضاها و المزيد من عطاءها .

لذلك فإن ديانة بلاد المغرب القديم سواء أثناء عهد المملك الوطنية المستقلة أو أثناء الإحتلال الروماني ، تنوعت من المعبودات الوثنية المحلية والوافدة إلى الديانات السماوية من يهودية ومسيحية .

* الديانة الوضعية :

فرض الإستعمار الروماني على سكان المغرب القديم الآلهة الرومانية الرئيسية منها "ساتورن "إلاه السماء و "كيليستس" إلاهة الخصوبة ، غير أننا نسجل في هذا المقام ، بأن موضوع طبيعة الأرباب في العالم القديم ، شهد ت مبدأ يعرف ب "الإمتزاج le syncrétisme" أي المزج بين الآلهة المحلية والآلهة الأجنبية الوافدة ، سواء كانت من المشرق أو من بلاد الرومان ، وهذا ما نلاحظه في هذين الإلهين الرومانيين ، فهما في حقيقة الأمر، الإلاهان المحليان المغربيان ،"بعل حمون "و"تانيت " ،.

إضافة إلى هذين المعبودين الرئيسيين ، عبد سكان البلاد معبودات أخرى ثانوية بعضها محلي وبعضها الآخر وافد ليس فقط من بلاد الرومان بل إغريقية ومشرقية منها المصرية والفارسية .، لكن أهم ديانة وجدت في بلاد المغرب وكل المقاطعات التابعة للإمبراطورية الرومانية ،هي عبادة وتقديس الإمبراطور كإلاه ولنشر هذا المعتقد الجديد ،صرفت السلطة الرومانية في كل المقاطعات ، أموالا طائلة للإحتفال بهذا المعبود وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من السكان اعتنقوا هذا المعبود طمعا في المآدب والإحتفالات التي كانت تقام في هذه المناسبات .

* الديانة السماوية :

ذكرت النصوص على النقائش وخاصة نقاش الحجارة الجنائزية التي توضع على قبر الميت ، للتعريف بالمتوفى وحرفته وديانته ، شهدت هذه الآثار على وجود جاليات تدين باليهودية قداستقرت في مناطق

معينة دون غيرها ، كما تذكر النصوص الدينية فيما بعد بأن اليهود كانوا من الأوائل الذين اعتنقوا المسيحية .

وإن كانت المسيحية قد ظهرت في المشرق (فلسطين) فإنها وصلت بلاد المغرب مُبكرا عن طريق التجار الذين حلّوا بمدينة طرابلس(عاصمة ليبيا حاليا) أو قرطاجة (تونس) وكذلك عن طريق تعاليم الحواريين الذين فروا من فلسطين إلى ميناء الإسكندرية في مصرومنها انتقلوا غربا .

وبوصولها بلاد المغرب، اعتنق السكان هذه الديانة الجديدة "المسيحية " إذ وجدوا في تعاليمها ما يحررُهم من هيمنة وطغيان واستعباد الرومان لهم ، فثاروا على ألوهية الإمبراطور وامتنعوا عن الخدمة في الجيش الروماني ،لأن الدين المسيحي يحرِّم قتل النفس البشرية ويحث على أن كل الناس إخوة بدون تمييز بينهم ، وبسبب هذه التعاليم التحررية لاقى المسيحيون الأوائل في بلاد المغرب منذ القرن الثاني ميلادي، اضطهادات كبيرة تمثلت في صلبهم والتنكيل بأجسادهم ورميهم أحياءا للحيوانات الضارية وعانوا من هذه المعاملة القاسية لغاية ترسيم المسيحية واعتبارها دين الإمبراطورية الرومانية سنة 312 ميلادي.

بالتوفيق

الأستاذة العقون أم الخير